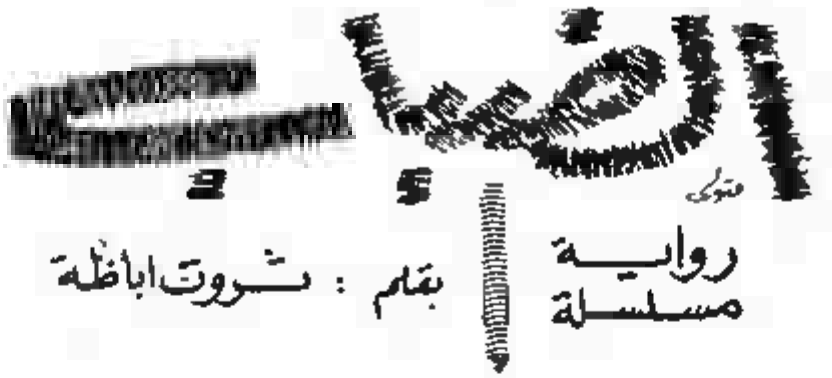

- ١ -

بكرت الست بسيه زوجة الحاج والى عبد الهادى فلبست ملطفها ووضعت على راسها خمارا مما تضعه زوجات الاعيان فى الريف واسقطته على وجهها وخرجت الى الطريق العام تسير فى تؤدة وهى صحة مكتملة فما كانت الست بسيه قد تعدت الاربعين من عمرها وما كان بطء المشية الا التزاما بما تمليه عليها مكانتها فى القرية ٠

ولم يطل المسير بالست بسيه فقد توقفت عند باب اطال وجهه من لقاء الرمس فهو كالح باهت لا استواء فى الواجه ولا نعومة ، فكانما الت عليه الايام خصوما كهذه التى تلقيها على وجوه البشر ٠ وطرقت بسيه الباب فانشق عن امراة فى خريف العمر فى وجهها قناعة وطيبة وفيه أيضا بعض عصون من العمر تركيها خصلات من الشعر الابيض صحت فاتت ان تبقى حبيسة المنديل دهشت سيدة أم عسل ان تقصد اليها الست بسيه فى زيارة صباحية بغير داع اليها ٠٠٠ ولكن دهشتها لم تنسها ان ترحب بالزائرة اعمق ترحيب واصدقه٠

لم تكن الحاجة بسيه لتزور بيت سيدة ام عسل فى الصباح ولا حتى فى المساء اذا لم يكن هناك سبب ملح للزيارة كاداء واجب فى عزاء أو تهنئة لزواج ، أما ان تسقط عليها كما يفعل الاصدقاء رفعوا بينهم الكلفة والمواعيد فهذا مالا يتفق ومكانة الست بسيه او الحاجة بسيه كما يدعوها الجميع ٠ فهى زوجة الحاج والى عبد الهادى من اعيان قرية الحمدية يملك فى وسام القرية ثلاثين فدانا وهو الى هذا رجل ذو راى صائب يلجا اليه القوم فى الملمات فهو على صلات وطيدة بذوى الشان فى المديرية ـ مديرية الشرقية ـ بل ان صلاته بالعتمس اتساعها واهميتها انها امتدت الى القاهرة نفسها ٠ وليس ادل على وجاهته ومكانته المرموقة من ان زيل العابدين بك الدرملى وجيه العزبة بل والمنطقة لايزور فى القرية الا قلة قليلة من بينها ـ ان لم يكن فى مقدمتها ـ الحاج والى عبد الهادى ٠ فزيارة الحاجة بسيه اذن لسيدة ام عسل زوج محضر ابو على زيارة من شانها ان تثير الدهشة والعجب والحيرة والزيارة فى الصباح تزيد من هذه الدهشة والعجب والحيرة

عما تعودت النساء في القرية أن يتزاورن في الصباح ، فكيف بهذه الزيارة التي تقوم بها الحاجة بمبه الى هـــذا البيت المتواضع ؟ هما يزيد محمدين ابو علي على رحل طيب يملك فدانين اثنين وخمسة اولاد بين بنات وبنون وهـــو بعد ، يزرع الفدانين بيديه فالصلة اذن بين الحاجة بمبه وسيدة صلة تقوم عـلى العطف اكثر مما تقوم على الصداقة ، وزيارة الحاجة بمبه الى بيت محمدين في أي وقت انما تعتبر تنازلا بتلقـاء اهل هذا البيت الطيب بكل امتنان وزهـــو وزيارة سيدة أم عسل الى بيت الحاجة امر تستعد له سيدة استعدادا كبيرا ، ثم هي لاتقوم بهـذه الزيارة وحدها ، انما تحرص في غالب الامر على ان تصحب معها ثلة من نساء القرية ، وهـــذه الزيارات تتكرر مرات كثيرة في الاسبوع ، في حين لاتتم زيارة الحاجة بمبه الى سيدة الا مرة في العام على الاكثر ـ ولابد ان يكون هنـــاك داع لتتم الزيارة ، اذن فقدوم الست بمبه لابد أن يكون مصحوبا بالخطر الجليل من الامر قالت سيدة :

ـ اهلا ستي الحاجة ، نورت ، اهلا وسهلا ، تفضلي ودلفت بمبه الى البيت ودخلت الى القاعة التي تعرفها وقالت :

ـ كيف انت ياسيدة ؟

واجابت سيدة :

ـ الله يخليك ويطيل عمرك ، دقيقة واحدة احضر الحصير .

ـ لا ، ساجلس على المصطبة

ـ اهذا يصح ياستي الحاجة ، والله ابدا ، حالا .

وراحت ترفع صوتهـــا وهي تحضر الحصير من خارج الغرفة لتشعر الست بمبه انها معها لم تتركها وما لبثت أن عادت سيدة وفرشت الحصير على المصطبة المتسعة من الطوب الاحمر وقالت :

ـ قهوة ... عندنا بن يمني يستاهل حسكك .

ـ اقعدي يا سيدة .

ـ القهوة قبل ان اقعد .

ـ اقعدي يا سيدة انا أريدك في شيء مهم .

ـ يا ستي الحاجة من حقك علينا ان تامري .. لا يمسي المعـــروف الا ابن الحرام ... لماذا لم ترسلي الى وانا اجيء على عيني .

ـ لا ... اردت ان اجيء انا اليك .

ـ اهلا وسهلا .. شرفت بيتنا .. والنبي اتركيني دقيقة واحـــدة احضر القهوة .

ـ اسمعي يا سيدة .. انت تعرفين عبد مني وانا متزوجة من الحاج .

ـ نعم عبد اكثر من عشرين سنة .

ـ اظن ياسيدة ، ليس في العـــالم واحدة فعلت ما افعله انا الآن .

ـ خيرا ياستي الحاجة .

وحدقت الحاجة بمبه نفسا عميقا من اعماق احزانها ثم اطرقت لحظات وصمتت واحترمت سيدة حزن الحاجة وصـــمتها فصمتت هي حتى عادت بمبه الى الحديث

ـ انت تعرفين كم يشتاق الحاج الى الاولاد .

واطرقت سيدة وتنهـــدت ومصمصت شفتيها وقالت :

ـ نعم ياستى الحاجة ، ربما يكون في عونك

ـ الحاج الآن في الاربعين من عمره وهو ...

وقاطعتها سيدة

ـ هل جربت التفاحة سهلة .. اقول لك ..

وقاطعتها الحاجة بسمه

ـ اكثر من عشرين سنة اجرب يا سيده .. اسمعي الكلام لآخره ولا تقاطعيني .

ـ امرك يا ستي الحاجة

ـ الحاج لم يعد يستطيع صبرا ، وهو محق ، فان سنه لا تسمح له بان ينتظر .. بلع من شعفه بانجاب الاطفال انه كان يريدني ان اذهب الى مصر اليوم واعرض نفسي على طبيب .

ودقت سيده صدرها وكانما طعن شرف الحاجة بسمه وقالت سيده

ـ ماذا ياستى الحاجة .. طبيب رجل .. يكشف عليك انت .. انت ياطاهرة يا نظيفة .. قطع الخلف وايامه .. امر احل العيال يكشف عليك رجل .. رجل يا ستى الحاجة .. رجل .

وقالت بسمه في أسى

ـ لم اقبل يا سيده .. لم اقبل .. ولكني اعرف زوجي فهو رجل غيور .

ـ عارفه ياستى الحاجة .

ـ فقبوله ان يكشف على رجل دليل على مقدار لهفته على الخلف .

ـ لك حق يا ستى الحاجة .

ـ رفضت .. وقلت في نفسي

وصمتت الحاجة واطلقت تنهيدة اخرى من صدرها فما خفت التنهيدة شيئا وكانت سيدة تتحرق شوقا لتعرف ما بنفس الحاجة .. ولم تكمل الحاجة حديثها بل انها لوت طريقه في عمق بدعو الى الدهشة فهي تسأل سيده

ـ قولي لي يا سيده .. ايجرى احد على ابنتك صالحه

ـ نعم ياستى الحاجة ،ولكن ما المناسبة؟

ـ هل اعطى محمدين كلمة لاحد

ـ لا

ـ انا اخطبها للحاج والى

ـ ماذا يا ستى الحاجة ... ماذا قلت ؟

ـ ما سمعت .. انا اخطب ابنتك للحاج والى زوجي

كان الموقف اكبر من الدهشة من سيدة واكبر من الالم من بسمه فلف المرأتين صمت امتزج فيه العجب الاحمد بالالم المرير والتقت فيه دموع بدموع دموع من اعماق الانسانية الخالصة . وفهمت كل من المرأتين سر دموع الاخرى .. وتمالكت الحاجة بسمه امر نفسها سريعا وقالت

ـ قلت له لن اذهب ثم ادركت انه سيتزوج فقلت أزوجه انا من امرأة اعرفها خيرا من ان يحضر لي صرة لا اعرفها وتحاول أن تجعل من نفسها سيده على فهي ـ في الغالب ـ ستكون أم العيال .. انا اعرف صالحه .. انها بنت حلال

وقاطعتها سيده

ـ خدامتك ياستى الحاجة .

ـ وهي ايضا قد تزوجت من قبل وخلفت وسطها معقول .. هيه ... ماذا قلت ؟

ـ امرك يا ستى الحاجه

ـ ستكون كابنتي تماما يا سيده

ـ عارفه يا ستى الحاجة .. عارفة لا حول ولا قوة الا بالله ... لاحول ولا قوة الا بالله

- ٢ -

كان الحاج والى جالسا فى دوار زين العابدين ملك ينتظر نزوله من الطابق الاعلى ، ولم يكن احد يشارك الحاج والى جلسته فى الدوار فهو وحيد ، ولم تكن السعادة بادية على محياه فهو متجهم شارد الذهن مفكر تفكيرا لاتلوح عليه بوادر هناء ، أو رضى ، فوجهه الاسمر مقطب وشاربه الذى تعود ان يعتنى به كل يوم عند الحلاق مهمل أشعث غاضب كصاحبه ، حتى العمامة التى لايلبسها الحاج والى الا وهى ملفوفة مسبوكة مهندمة التى عليها الحاج والى ظلا من تجهمه فهى مسداحة على راسه تتهدل اطرافها على وجهه ، وفى عينيه السوداوين ظل من أسف وأسى وفى جبهته العريضة عضون من الالم لامن الزمن ، وفى فمه كلمة حبيسة لا يدريها ولا يعرف ما هى ولكنه يعرف أسبابها ودوافعها .. كيف يقول ما بنفسه ، كيف يعبر عنه .. لم يكن يدرى .. وانه السكير بعض الشىء يحتدب انفاسا عميقة ولكنها لاتريحه فما يلبث من حين لآخر ان يفتح فمه الصغير فيلتقط من الهواء شهيقا عميقا يزفره فى بطء حانقة ضيقة ملول فما تجدى الشهيق ولا الزفير ولا الانفاس اللاهثة التى يحتدبها له انفه .

وياتى متولى الخادم الى الحاج والى فما يرفع عينيه الى متولى ، ولم يكن متولى يرضى هذا منه ، فقد تعود من الحاج والى مداعبة أو كلمة تحية ان كان جالسا الى الملك ، اما ان يلاقيه بهذا الصمت بل بهذا الاهمال فامر لايمكنه السكوت عليه فان الحاج والى لايفعل هذا الا ان كان فى حال من الضيق شديد ، وقبل ان ينطق متولى يكون الحاج والى قد شهق من الهواء شهقة طويلة زفرها وقد ضم شفتيه بعض الشىء فخرج الهواء كصفير فاشل حانق وقال متولى :

ـ اعوذ بالله لماذا هذا ياحاج والى ؟ هون عليك يا شيخ ، تبيت نارا تصبح رمادا ـ ما الذى يضايقك ؟

وكأنما لم يكن الحاج والى يتوقع ان يتبين متولى حقيقة مشاعره فهو يقول فى اسى :

ـ الهم كثير والله يا متولى .. النهاية الحمد لله على كل شىء .

ـ مادا ، مادا بك ، عريس جديد ، والمال ـ والحمد لله ـ موفور وشباب وصحة ، وكل ما تشتهيه انعمه .

ـ اسكت يا متولى .. اسكت لايعرف النحوس الا عالمها .. اسكت لاأراك الله ما أنا فيه .

ـ يا راجل توكل على الله .. هل احضر الشربات ؟ .

ـ بل القهوة يا متولى ولتكن بغير سكر .

ـ يا رجل اعوذ بالله ، اهو حسنة ما اصابك .. مادا بك قل لى انك منذ فترة طويلة مهموم ، وقد حسبت انك حين تتزوج سيزول عنك الهم فاذا انت تصبح تعيسا ، اين الضحكة الخالية من التفكير ، اين النكتة الرائعة من كل كدر اين انت ياحاج والى ؟ .

ـ لا عليك يا متولى .. لاعليك ، هكذا امر الله .

ـ يا رجل انت متزوج من قريب ، اهذه حال رجل تزوج من قريب ؟

ـ امر الله يامتولى .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، ولكن رغم هذا سأحضر لك الشربات لن اتاخر ، شربات ، شربات مهما تكن مهموما ، شربات .

وخرج متولى وحلت الضرة بالحاج والى وثقل عليه الصمت وتقل عليه التفكير الصاحب وود لو عاد متولى ولو ليشقشق بهذا الحديث الذى تعود ان يشقشق به ، ولكن متولى آثر ان يتركه ولو كان يعلم ان حديثه الفارغ اهم عنده من الشربات الذى يصر على احضاره ما تركه ، وتأخر متولى ، وسمع الحاج والى صوتا واهنا يسمعه غير بعيد من مجلسه ، ونظر فرأى مصيدة فيران فارغة فاها فى شراهة يقف حيالها فار يلوب حواليها مضطربا الذكاء والحذر ، مقدما حينا على اللقمة التى تبدو للنظرة المجردة سائغة سهلة المنال محجما حينا آخر وكأنما يريد ان يعرف مادا ستفعل اللقمة او المصيدة ان هو اقترض عنها ولم يقدم وانشغل الحاج والى بالصغار واللقمة والمصيدة ، وأمعن الفار من مداورته ثم عاجم اللقمة فجاة وكأنما أراد ان يتهور من المصيدة غفلة ويخطف اللقمة ، ولكن المصيدة لم تكن تغفل فما هى الا أن اصبح الفار جميعه داخلها حتى اطبقت عليه فمها الشره ، ونظر الفار الى باب المصيدة نظرة حسيرة ثم عاد الى اللقمة فاكل جزءا منها ثم ما لبث ان عافها ونادى الحاج والى :

ـ يا متولى ، يا متولى .

ولم يجب متولى النداء وانما دخل الغرفة زين العابدين تلك رجل فى أواسط العمر ابيض الوجه سمح الملامح يبدو عليه حرص على أن يأخذ من الحياة احلى حواشيها فهو منهيا دائما لهذا الجانب الحلو من الحياة بابتسامة مشرقة لاتفارق وجهه ، يحسم على ضوء مبدأ لايحب ان يسمح نفسه من لذائذ الحياة ، وقد كان زين العابدين بك فى مثل سن الحاج والى وان كان متوسط الجسم عريضه ، وكان الشيب قد بدأ يرود نواديه فى تؤدة وهدوء . وقد كان شأنه فى انجاب الذرية شأن الحاج والى فهو ايضا لم يحب اطفالا وقد حاولت زوجته قدر طاقتها ان تحب له بنين اوبنات ولكنها

لم تفلح،ويئس زين العابدين ولم تيأس زوجته ، وقد رأى زين العابدين الايجعل يأسه يعوق املها ، فهو يترك لها مطلق الحرية ان تفعل ماتشاء من عرض على اطباء الى استماع الى وصفات بلديه الى غير ذلك لايقف دون مطلب من مطالبها وان كان هو قد شغل نفسه بغير ذلك، فهو مسرف غاية السرف في امتاع نفسه لا يعوقه عما يريد شيء ، على استعداد دائما ان يقترض ويبيع ليفعل ما تصبو اليه نفسه ، فهو كثير الولائم ، كثير الذهاب الى القاهرة يحب لياليها جميعا والخمراء منها خاصة ولولا ان الفلاحين قد ثاروا على الانجليز فقطعوا الخطوط الحديدية التي تصل القرية بالقاهرة ما استقر زين العابدين في القرية ، الا ان الثورة اندلعت لايقف في سبيلها شيء وانقطعت الاسباب بالقاهرة وكان زين العابدين بالقرية فارسل فلاحيه يشاركون في قطع الخطوط وحمل امره الى الله واقام بالبلدة وحين عسكر الانجليز على مشارف القرية ابى ان يتصل بهم رغم الجهد الجهيد الذي بذله كبيرهم في الاتصال به ، ولما يكن صادرا في ذلك الا عن مشاعره الصادقة ، وراح الانجليز يحاولون اصلاح الخطوط المقطوعة فلا يجدون من الفلاحين الا

ازدراء وقد حاولوا أن يغروا زين العابدين بأنهم سيبيعون له ان يشاء رتبة الباشوية فلم يكن هذا الاغراء كافيا وراض ان يعاونهم وان كان في دخيلة نفسه يحترق شوقا ان يتم اصلاح الخطوط الحديدية ليجد سبيله الى القاهرة ولم تكن زوجته تعلم عن حياته في القاهرة شيئا بل هي لاتعلم انه يبيع من أرضه شيئا كل ما تعرفه من شأنه ان تطلب منه مالا لتذهب الى الطبيب أو لتشتري ما يلزم لوصفاتها فلا يبخل عليها .

وقف الحاج والي يسلم على زين العابدين فعاجله هذا قائلا

ـ مبروك يارجل .

وقال الحاج والي حسيرا

ـ لاتهنئني يازين العابدين بك

ـ لماذا ؟

ـ لو تعرف ما انا فيه ما هنأتني .

ـ خيرا يارجل ماذا بك ؟

ـ لا والله ليس خيرا ابدا .

ـ قل ماذا حدث .

ـ لاشيء ، تزوجت .

ـ وهل هذا يحزنك .

ويدخل متولي حاملا الشربات ويقول زين العابدين

ـ احسنت صنعا يا متولي .

وقال متولي

ـ تفضل ياحاج .. مبروك .

واخذ الحاج الكوب ووضعه على المنضدة وقال زين العابدين

ـ ماذا بك ؟

وقال متولي

ـ يا سيدي انه منذ جاء وهو بهذا الشكل

وقال زين العابدين

ـ عجيبة

وخرج متولي وهو يقول

ـ عجيبة .

والتفت زين العابدين الى الحاج والي

ـ مالك يا حاج والي ؟

ـ ألم تصدق كيف تزوجت يازين العابدين بك ؟

ـ نعم عرفت .

ـ عرفت ان زوجتي هي التي خطبت لي .

ـ نعم ... ولا اكتمك لقد اندهشت لهذا وكنت اريد ان اسالك عند سمعت ولكنك لم تات .

ـ خجلت ان ترى وجهي .

ـ ولماذا تخجل ؟

ـ ما الذي يجعل امراتي تخطب لي .. لابد انها رات حرصي الشديد على الانجاب .

ـ نعم .. لا شيء غير ذلك .

ـ اليس هذا مخجلا ؟ .

ـ لماذا ؟

ـ كيف سولت لي نفسي ان اهين كرامة زوجتي الى هذا الحد .. ياسعادة البك انت سيد العارفين .. الا تتصور مقدار الالم الذي عانته امراتي وهي تخطب لي امراة غيرها ، اقسم بالله يا سعادة البك اني عند جاءت زوجتي وانا استحي ان اكلمها امام الخاحة .

وصمت زين العابدين واحس الحاج والي ببعض الراحة وهو يلقي هذا الحديث لاول مرة الى مسامع انسان واستوصل .

ـ اكل هذا من اجل الاولاد ؟ .

ـ وهل الاولاد شيء بسيط يا حاج والي .

ـ والله يا سعادة البك اصبحت لا ادري .

ـ اسمع ياحاج والي لقد سمعت عن زوجتك الخاجة انها عاقلة وكريمة ولكنها مهما فعلته جعلت نفسها مثلا اعلى فاكرمها .

ـ اكرمها ... اكرمها ياسعادة البك، اني لا ادري كيف اعاملها .. يتهيا لي احيانا انها ليست من البشر .. ولا ادري كيف اعامل الملائكة ، لقد حملتني لها عبدا .. انا عارف يا بك .. انا عارف مشعور المراة وغيرتها .. عارف كيف استطيع ان اوفيها حقها .

ـ انت محق ياحاج والي .. الخاحة معيه تستحق ما تقوله عنها .

ـ ولكن .. ولكن انا .. انا خجلان يا سعادة البك .

ـ أخطئت لك دون ان تخبرك ؟

ـ اخبرتني بعد ان خطبت .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ فعلت ما لازلت اخجل منه .

ـ ماذا ؟

ـ ثرت ولكني في دخيلة نفسي كنت مسرورا .

ـ كيف ؟!

ـ غضبت وقلت لها أتزوج .. وهذا كلام فارغ .. و .. و .. ولكن لم افلح في اخفاء حقيقة نفسي .. انها زوجة عشرين سنة وذكيه ، ادركت اني مسرور فاذا هي تقول في كل هدوء ، سأشتري لعروستك بعض ملابس وتتزوجها الاسبوع القادم ان شاء الله وكانما القت على راسي ماء باردا فاذا انا صامت وكاني مستسلم ثم قمت وخرجت ، فاذا جميع من في البلدة يعرفون امر الخطبة فهم يهنئوني واري في عيونهم ابتسامة تجمع بين التعجب والحسد ، يخيل لي انهم كلهم يتمنون ان تكون زوجاتهم مثل زوجتي مع انهم جميعا آباء ، لهم من البنين ماتضيق به البلدة لم احد من اشكو له همي الا انت ولكني كنت خجلا منك فصمت عنك ثم

لم اجد بدا من ان اتغلب على خجلي والا انصرفت بالالم الذي اعانيه فجئت ... وارتجلت ان قلت لك ماقلت يارين العابدين بك اطال الله لنا ..

ـ يا رجل المسألة لا تستاهل كل هذا

ـ بل تستاهل يا سعادة البك ولكن ماذا افعل .. لم تعد هناك فائدة .. ايستحق الاطفال كل هذا .. ايستحق الاطفال ان تطعن امراة صالحة كزوجتي كرامتها كامراة ، وتتجاهل امومتها الى درجة ان تحطب لزوجها امراة لتحب له اطفالا ماذا اصنع بهم ؟ .. لماذا كنت شديد الرغبة في الانجاب الى درجة ان جعلتها تقتل امومتها بيديها وكانها تنتحر ماذا سأصنع بهم . وماذا سيجري في الدنيا اذا لم انجب أنا اطفالا هل ستتوقف الدنيا عن الدوران ماذا اصنع بهم، أرى من عندهم اطفالا يضيقون بهم وارهم اذا مرض احدهم يكاد الاب يموت من قلق وخوف وشفقة ، ثم اذا صح الطفل المريض وحدث الاب صبيا عاية الصبيق بما يحمل من مسئولية لاتؤاخذني يا سعادة البك فانت لم تحب .. اي شعور عجيب يشعر به الاب فيجعلني حريصا كل هذا الحرص على ان انجب .. انت لاتدري الاشعوري هذا .. ام تراك تدري .

ـ بل لا ادري .. حقا انا لا ادري، ولا اكتمك فقد كنت احب ان ادري .

ـ اهو حرصنا على ان يظل اسمنا بعدنا .

ـ وماذا يهم من بعدنا ان بقي اسمنا او لم يبق .

ـ فماذا اذن .. اي شيء عجيب في هذه المخلوقات الصغيرة الحمراء يجعلنا نحبها ونحرص عليها ونتوق الى ان نصبح آباء لها .

ـ لعلنا نحب فيهم الحياة ياحاج والى فهم حياة جديدة واقبال الاطفال يشعرنا او هو يشعر الآباء ان الحياة ما زالت تستطيع ان تجدد نفسها .

ـ وماذا نحب في هذه الحياة ـ هذه الحياة التي لا نستطيع فيها ان نسأل ما نهفو اليه الا على اشلاء احاسيسنا وكرامتهم .

ـ ليس هناك كثيرون حطمت لهم زوجاتهم ياحاج والى .

ـ نعم ولكن هناك كثيرون سعوا الى الانجاب بشتى الوسائل وسهروا الليالي الطوال لتحقيق هذه الامنية .لقد كانت زوجتي شريفة فيما فعلته ، سمعت عن نساء اخريات يبذلن انفسهن لغير ازواجهن ليهبن لازواجهن اطفالا ، احسن أزواجهن الى درجة الخيانة من اجلهم ، هل يستحق الاطفال هذا .. هل يستحقون . أم نحن مخدوعون .. انا حائر يا سعادة البك ..حائر .. ماذا في هذه المخلوقات الصغيرة.. اي سحر فيها ..انهم اقوى من الحياة يارين العابدين بك .. اقوى من الحياة .. يهون على المرأة ان تموت ولا ترى زوجها مع غيرها ، ولكن زوجتي حطمت لي ، حطمت لي لانها احست الى اي مدى اريد ان ارى لنفسي اطفالا .. هذه المخلوقات اللعينة .. اللعينة .

ـ ولكنك مع هذا تريد اطفالا ياحاج والى .

واطرق الحاج والى لحظة وحيل اليه ان سحابات من ضباب تغشى ناظريه ثم قال في اسى .

ـ نعم يا رين العابدين بك .. نعم .. اني اريد اطفالا .

- ٣ -

تعتبر الحاجة نعمة امهر سيدة بالقرية في رؤية المستقبل في الفنجان ، وطالما قصد اليها نساء القرية ليطلعهن على ما تخبىء لهن الايام ، وطالما رأت بقايا القهوة في فنجانها ، ولطالما رأت الاطفال قادمين اليها لاتحصيهم عددا. وهاهي ذى اليوم ترى ان تحقيق امنيتها قريب فان الفنجان لم يخبرها ان كانت هي التي ستلد هؤلاء الاطفال ام ان عمرها سيتجهم لها ، وانما ما اتياها به ، أن الاطفال سيعودون الى البيت ، وهكذا اقتنعت ان فنجانها لم يخطىء وها هي ذى تنتظر الاطفال من صالحة ولكنها غير سعيدة ، يزيد من تعاستها انها مصممة على ان تبدو سعيدة . وكانت الحاجة نعمة بيضاء ، في خدودها حمرة وفي وجهها طيبة واستدارة ، ترحل جسمها ولم يفقد انسجامه ، وهي صاحبة حديث شهي ، هيبة الماجد قرية الغور سمحة ولكنها قادرة على ان تحسم امورها ، قادرة ايضا على اقناد ما تريد ، وقد اعجب بها الحاج والى وهو طالب في الازهر الشريف وتزوجها يوم اوشك البقاء في القرية بعد ان ظلت محظوظة له مدة اربع سنوات كاملة ، وقد شهد العام الأول من زواجهما صفاء وحبا اما العام الثاني فقد كدره لهفتها أن تصبح اما ، وراد هذه اللهفة تساؤل قريباتها عما اخرها عن الانجاب ، ثم صارت السنوات التالية جميعا كفاحا من اجل الانجاب ، وقد كان العلم في ذلك الحين يضرب في مجاهيل من الجهل ، ولم يكن من المعقول في ذلك الحين ايضا ان ترى الحاجة نعمة غير النساء ، فزوجها رجل صارم رادته تربيته الدينية صرامة ، ولم يكن في الحجاب الذى يفرضه المجتمع على النساء في ذلك الحين اى عجب بل ان النساء حتى هذه الايام لم يشعرن باية غضاضة او ضيق . وقد كانت الحاجة نعمة من اولئك النسوة اللاتي يرين ان اوامر ازواجهن مقدسة لا سبيل الى التهاون فيها ، وكان الحاج والى يحب زوجته وما كان ترفعها يريده الا حبا لها فقد كان الجمال كل الجمال ان تكون المرأة سعيدة حتى لا يكاد زوجها ان يحيطها بذراعيه . ولولا رغبة الحاج والى اللاهفة في ان يحب اطفالا لما فكر في الزواج فقد ارادت زوجته جمالا على جمالها في السنوات الطويلة التي عاشتها معه فانه لم يكن يأخذ عليها يوم تزوجها الا انها نحيفة القوام .

ولم يكن الحاج والى من هؤلاء الرجال الذين يميلون الى العنف في معاملة زوجاتهم بل كان رقيق المعاملة يحب حديث زوجته ويأنس اليه ، وكم تمنى ان يتخلص من رغبته في انجاب اطفال بل لكم خيل اليه انه تخلص من هذه الرغبة ولكنها ماتلبث ان تثور عاصفة في نفسه وقد اخذ نفسه منذ تزوج بصالحة، ان يزيد من اهتمامه بالحاجة نعمة فهو لايخرج من البيت الا بعد ان يجلس اليها ويشرب معها قهوة الصباح .

وقد فكر في يومه هذا مليا ونظر الى الشباك فوجد السماء منجهمة صلبة الملامح ، وكانت النجمات التي يطل شباكه عليها تهتز في غير سرور فقال في نفسه أهذا ربيع اللهم اجعله خيرا

ثم صلى ركعتى الصباح ، والتفت الى صالحة يسألها :

ـ لماذا لا تصلين الصبح ياصالحة ؟

ـ سأصليه عندما تخرج ياعم الحاج .

ـ اتصرين على ان تقولى ياعم الحاج ؟

ـ تعودت على قولها .

ـ ان اردت الحقيقة فانا احب ان اسمعها منك لا ادرى لماذا رغم انها تجعلنى احس انك صغيرة وانى كبير ، ولكنى احب ان اسمعها منك لاتغيريها .

وضحكت صالحة ، وهى تقول :

ـ انى لا استطيع ان اغيرها .

لكن الحاج وانى تفهم خطه وقال :

ـ الم تعلق الحاجة نسمه عليها بشىء ؟

ودهشت صالحة لبعض الشىء وقالت :

ـ تعلق على ماذا ؟

ـ على قولك يا عم الحاج .

ـ وبماذا يمكن ان تعلق عليها ؟

ـ قد ترى فيها تدليلا او شيئا من هذا القبيل .

ـ لا تخشى شيئا ، فان احدا لايرى فيها تدليلا الا انت .

ـ لاتؤاخذينى ياصالحة ، فالحاجة نسمه ست طيبة ولا اريد ان اغضبها .

ـ يا عم الحاج لاتخش شيئا فانا ايضا احبها واحترمها من اجل خاطرك ومن اجل خاطرها هى ايضا فانا اعرف انها لاتكرهنى ، او هى على الاقل لاتظهر لى الا كل خير فلماذا اغضبها ؟

ـ الله يسترها معك ياستى .

ـ انى اعمل لها كخادمة لا اعنى لها امرا ، ولكنى احس ان فى هذا راحتى مادام يرضيك .

ـ ولكنك لست راضيه كل الرضى .

ـ كل امراة تريد ان تكون ست بيتها .

ـ الا يكفيك ان تكونى ست هذه الحجرة .

ـ يكفى ان اعيش معك ياعم الحاج .

ـ الله يرضى عليك يا صالحة .. لقد تاكدت ان الله راض على هذه عرفت حقيقة اخلاقك ، وازددت تاكدا من رضائه سبحانه وتعالى يوم بشرتنى بما تحملينه لى فى احشائك من خير .

ـ انت رجل طيب ياعم الحاج .

ـ اقولك بخير .

ـ مع السلامة .

وخرج الحاج وانى الى بهو بيته فوجد الحاجة نسمه جالسه فى مكانها وامامها معدات القهوة فبادرها :

ـ صباح الخير ياستنا .

ـ صباح الخير ياحاج اهلا .

ـ هل شربت القهوة ؟

ـ من غيرك ؟ لاوعيت اذوقها .

ـ والله ياحاجة لاأحد للقهوة طعما ان لم تكن بيدك .

وبدأت الحاجة نسمه تعد القهوة وهى تسأله :

ـ الى اين العزم ان شاء الله ؟

ـ الى الشيخ حسنين المحلاوى فقد وعدنى اليوم ان ازوره واشرب عنده القهوة واتقاضى دينى .

ـ اتذهب الى العشماوية فى هذا اليوم العاصف ؟

ـ ياحاجة نسمه نحن فلاحون .. اذا قعدنا فى بيوتنا من اجل الجو تعطلت اعمالنا .

ـ ربما يكون في عونك ياحاج والي ..

وكانت القهوة قد أعدت وأخذ الروحان يحتسيانها وفي دهن كل منهما افكار تضطرب يحاول ان يسترها عن رفيق عمره ما وسعه الجهد . وقال الحاج والي :

ـ لو كانت القطارات تسير لوجدت الحرائد في المحطة .

ـ لا عليك . فالانجليز يعملون بهمة في اعادة الخطوط الحديدية .

ـ والله ياحاجة لايضايقني من هذه المهمة الا انني سأمر على الانجليز ..

ـ يا اخي مالك ومالهم ..

ـ يكفي أنني سأنظر الى وجوههم المسلوخة .

ـ اذا وصلت اليهم فانظر الى الجهة الاخرى .

ـ على رأيك .. اعوذ بالله منهم .

ـ انتظر .

ـ ماذا ؟ .

ـ الا أقرأ لك الصحف

ـ كنت انسى والله ياشيخة ..

ـ انتظر .. اري كأنك في طريق ستتحصل منه على مال ..

ـ لا ياحاجة هذه ليست في الصحف، لقد اخبرتك الآن انني سأتقاضى دينا من الشيخ حسنين .

ـ انتظر . واري كأنك جالس في وسط الطريق .

ـ فاني سأقطع الطريق كله جالسا، لاني سأمتطي الحمار وضحكت الحاجة بسذاجة وهي تقول :

ـ لابد انك ستقع عن الحمار ياحاج والي . لاني اراك جالسا على الارض وضحك الحاج والي قائلا :

ـ هذا هو الحديد .. لاشك ان هذا هو الحديد .

لم يبق الا أن اقع عن الحمار ..

ـ هذا كلام منجمك .. وأراك منصورا والله ياحاج والي .. ان شاء الله أنت منصور على اعدائك ياحاج ..

ـ ربنا يسمع منك ياحاجة . عاشت طيبة ونفسك طاهر .. اعوذ بعافية

ـ عافاك الله ..

وخرج الحاج والي الى الطريق وقد ركب حماره ، وكان الفلاحون في طريقهم الى حقولهم ، فنوسهم على اكتافهم وفي يدهم دوابهم . وتبادل الحاج والي التحايا مع الفلاحين ، وقد كان الحديث بينهم عن الثورة المشتعلة في القاهرة والريف فقد كانت تسيطر على سماء مصر في ذلك الحين ـ احوال من الحيرة والاضطراب اما ابناء مصر انفسهم فقد كانوا بعيدين عن الحيرة كل البعد ، فقد عرفوا الغاية والطريق ، فهم يشعلونها في كل ماتقع عليه ايديهم تأثيما الاعداء من مصر فيها فهم من المحتل وعنف وعسف وظلم فلا يريدهم شيء من هذا الا اصرارا واندفاعا .. فهم التيار الأحمد لايصده عن مقصده شيء . سمعوا عن اعتقال سعد وصحبه فثاروا ، وسمعوا عن مأمور الضبط الذي قبض على الاجانب المستكبرين بالحماية الانجليزية فاجري معهم التحقيقات الرسمية ووقعها باسمه ثم استقال من الحكومة فشعروا ان شباب مصر يستطيعون ان يبلغوا الآمال وان غاب عنهم القادة والزعماء . كانت الثورة في داخل النفوس فهي نيران . وكان وجود الانجليز وحده كافيا ان يمد هذه النيران بوقودها فهي متأججة دائمة

الأوار - وانطفأ الأنين عن الفلاحين في قراهم بعد ان قطعوا الخطوط الحديدية ووقفت السلطات الانجليزية تعيد الخطوط الى امكنتها وتمنع الحوادث . فسكن الفلاحون ينتظرون ، ولكن الثورة في نفوسهم لم تسكن . فلاحديث لهم الا عما كان من الحوادث وما يرعبونه من مستقبل وكان الحاج والي وهو في طريقه الى العشماوية لايكاد يمر بجماعة من الفلاحين في طريقهم الا وسمع كلمة « سعد » او كلمة « الانجليز » او كلمة « الثورة » او كلمة «القضبان» لم يسمع الحاج والي فيما سمع ، كلمة السداد او القمح او الارض او كلمة من هذه الكلمات التي تعود ان يتبادلها ابناء القرية في مألوف حياتهم .

وبلغ الحاج مشارف المحطة وعبر مواضع القضبان الحديدية المنزوعة متصعدا ان يلقي بنظره بعيدا عن الانجليز وما كاد يبتعد عنهم حتى اطلق صفيره مستريحة وهو يقول

- الحمد لله ..

وكأنه خرج من مأزق حرج وبلغ الحاج والي مقصده وتقاضى دينه وعاد طريقه وغير موضع القضبان مرة اخرى واوشك ان يبتعد ويطلق التنهيدة ولكن طلقا ناريا كان اسرع من تنهيدته . وفي لحظة خاطفة كان الحاج والي جالسا في الطريق فوق الحمار المتهاوي تحته ومر بذهن الحاج والي قول زوجته انه سيجلس في الطريق ثم مر بذهنه انه اصيب فليث مكانه ينتظر ان يتدفق الالم من اي مكان في جسمه ، وظل ليته ولكنه لم يتالم ، فاخذ يتحسس ما تصل اليه يده فعادت اليه يده كما اطلقها لم يعلق بها شيء يؤكد شكه ، ففكر ان يعتدل فتحرك جسمه فتحرك معه . وتهيبا ان يقف واحد يرسم حركاته فسأل ان يتحركها فراح جسمه يطاوعه في كل ما يحاوله حتى استقام امره واحيرا واعتمد رجليه . ووقف ، ونظر الى حيث كان جالسا فتبين الحادث باكمله . لقد اطلق الانجليز الرصاص على الجزء الاعلى من ذيل الحمارة . لو لم يكن الحاج والي مشغولا بما اصابه ولو لم يكن صحيح الذهول والاضطراب محيطا به من كل جانب لسمع القهقهات العالية التي كان الانجليز يطلقونها بعد عيارهم - وقصد اليهم الحاج والي في ثورة عاتية يمسك باطرافها في نفسه خوف من عيار ناري آخر يصوب اليه هو في هذه المرة وما أرخص الارواح عند الانجليز وماصر ان يموت هو كما مات الحمار ، فما كانوا يميزون كثير فرق بين انسان مصري وحمار ، فصمد اليهم يفكر فيما يقول او يفعل ، وتقدم اليه قبل ان يصل شاب مصري يرافقهم من قبل مصلحة السكك الحديدية وقال :

- على رسلك ياشيخ .

وقال الشيخ في غضبته :

- ايرضى الله هذا ؟

- وهل يعرف هؤلاء الله ؟

- ماذا فعلت حتى يفعلوا بي هذا ؟

- لاشيء ، لقد تراهن احدهم مع آخر على انه يستطيع ان يصيب الحمارة التي تركبها دون ان يصيبك وها هو ذا يضحك لانه كسب الرهان . الحمد لله انه كسب الرهان .

- الحمد لله ؟!

- لو كان خسر الرهان لخسرت انت حياتك .

ـ لا اله الا الله ٠٠ لا اله الا الله

ونادى احد الانجليز الشاب المصرى يدعى اليه ، وأوشك الحاج والى ان ينصرف ولكن الشاب ناداه

ـ انتظر ياعم الشيخ ـ

فانتظر الحاج والى وجاء اليه الشاب وفى يده جنيه ذهبى وقال خد هذا ٠

ـ ما هذا ؟

ـ يقولون انه ثمن الحمار

وقال الحاج والى فى غيظ ٠

ـ قطعت يدى ان اخذته

ـ افعل معروف وحسنه قال اولاد الكلب هؤلاء لايرحمون وقد يقصون يطلقون عليك اثنت النار ، وما اسهل ان يقولوا بعد ذلك انك حاولت ان تعتدى عليهم خد ٠٠ خد ٠

وامسك الحاج والى الجنيه الذهبى والقى به الى الارض فى شىء من الخوف وهى كثير من الحرم مراعيا ان يسقط الجنيه بحيث يرى الانجليز انه رماه وبحيث يجدونه ايضا ان تفقدوه واولى الجميع ظهره واخذ سبحته الى العربة منتظرا فى الخطوات الاولى ان ترديه رصاصة محكمة التصويب فيقول فى نفسه ، اشهد الا اله الا الله وان محمد رسول الله ، ويملأ نفسه شعور بالكرامه فهو يسعى فى حظره وكأنما يتحدى حتى اذا وثق انه صار بمنأى عن مرمى الرصاص منهم سار طريقه فى خطوات متثاقلة يحمد الله ان نجا ، يملأه شعور بانه انتصر ويملأه شعور آخر بانه مظلوم ، تختلط فى نفسه الوان من الغيظ ومشاعر من الغيره

- ٤ -

لم يكن بيت زين العابدين بك بادح العمامة واسما كان رحب الفناء تستقبل الداخل اليه شرفة واسعة ليست مرتفعة عن الارض الا بعض درجات قلائل ثم هي تفضي الى بهو كبير تحيط به من الجانبين حجرات واسعة للاستقبال واما الدور الاعلى منه فهو حجرات للنوم وتحرص بهية هانم ركن على العنايه بالمنزل بغاية مايستطيع من طاقة - وان كانت الغيران كثيرا ما تعدو على طاقتها بما لاتحب - فهي تطاردها ما وسعها الجهد . وبهية هانم سيدة بشوشة في بيت السلطانه فيه قطعه من الدين،والدين فيه هو كل شيء فهي لم تغفل يوما لزوجها الا ما يرضيه ، شأنه ان يأمر وشأنها ان تطيع دون ان تحاول تبرير اوامره او مناقشتها . ولولا مايشغلها من امجاب الاطفال لسعدت بحياتها في ظله كل السعادة . عما ينقصها من حياتها شيء الا ان تصبح اما . فهي تسعد حين تنظر الى المرآة غاية السعادة فهي جميلة القسمات قم متسع بعض الشيء يعلوه انف صغير تحيط بها وجنتان فيهما امتلاء وفيهما نعومة واشراق . يعطي الشعر الاصفر اذنيها الصغيرتين نادرا من رأس متسعة تاركا بينه وبين العينين السوداوين جبهة صافيةعريضة . وبهية ممتلئة القوام في غير افراط واما هو القوام كما يشتهيه روحها طولاوعرضا . ولم تكن بهية قد ادركت الخامسة والثلاثين من عمرها ، وهكذا كان املها في الانجاب تمهد له هذه السن الباكرة ان يزدهر ولا يتضاءل .

كان الوقت مساء وقد صعد زين العابدين مبكرا من الطابق الادنى وقال لها مبتسما :

- حبيبه ما رايك لو سافرنا الى مصر باكر ؟

- صحيح .. هل اصلحت السكة الحديد ؟

- سنسير بنا اول قطار الى مصر باكر

- ولكن لي شرطا .

- الك شروط ايضا ؟

- شرط واحد .

- أحسدك معي الى مصر لترى اباك وامك وتملين شروطك ايضا

- قلت لك انه شرط واحد .

- امرك ياستي .. قولي شرطك .

- اذهب الى الدكتور نجيب محفوظ

- ماذا ؟

- دكتور مشهور في مصر سمعت عنه من زوجة مأمور المركز . ظلت عشر سنوات بلا خلف حتى كتب لها الدكتور محفوظ دواء فاصبح لها ولد وبنت

- امرك يا ستي .. امرك .. ولكن لي شرطا انا الآخر .

- امرك .

- لا تطلبني مني ان اقيم معك في بيت والدك .

- لماذا ؟

- لا ارتاح هناك .

- امرك .

- اتفقنا .

وكان الصباح ، ونزل زين العابدين

الى الطابق الأسفل بعد ان أوصى زوجته الا تتأخر في اعداد الحقائب . وكان في انتظاره الحاج والى الذى جاء بناء على موعد سابق .

ـ صباح الخير ياحاج والى .
ـ صباح الخير ياسعادة البك .
ـ هيه هل احضرت المبلغ ؟
ـ المائة جنيه معى الا ان لى كلمة
ـ لا تقلها .
ـ لابد ان اقولها .
ـ ياحاج والى ان لم اتمتع بمالى فلمن اتركه .. ما انت ترى .. لا ولد ولا بنت .

ـ ياسعادة البك العمر امامك طويل، وقد بعت حتى الآن ما يقرب من الخمسين فدانا ، ماذا تفعل عندا اذا رزقك الله بالولد او البنت هل كان احد يصدق انى سأحلف .. عندما انتظر مولودى .. اعمل معروفا يازين العابدين بك ، كفاك بيعا .

ـ ربنا يسمع منك ياحاج .. لك حق .. من يدرى فها نحن سنذهب الى الدكتور نجيب محفوظ فى القاهرة ؟ .

ـ ان شاء الله ربنا يستجيب لدعائنا
ـ ربنا يهيأ الخير ياحاج .

ـ على بركة الله .. تحمل المبلغ .
ـ العقد الذى معك سليم ؟

ـ نعم .. ابقاك الله .. نحن جميعا نشهد لك ان بيوعك شريفة وعقودك سليمة والحمد لله .

ـ الحمد لله .
ـ استأذن انا .
ـ مع السلامة ياحاج والى .

وقام الحاج والى وخرج ، وظل زين العابدين وحده يفكر فيما قاله له الحاج ثم ما لبث ان انعتق عن ذهنه وقام الى شرفة داره يذرعها فى انتظار موعد القطار والقى نظرة الى الشجر الذى يحيط بيته فوجد طيورا كثيرة مطمئنة الجلسة فوق اغراقه .. ما الذى يمسك بهذه الطيور هنا .. لماذا لا تذهب الى القاهرة ولها احنحة .. أمر الامر الذى يشيع حول بيته فهو لا يصيد الطير فليس ثمة صوت قديمة يسمع .. وهل يكفى الامن حتى تستقر الطير فوق اشجاره .. ما لهذه لاترود السماء والاشجار انها عمية هذه الطيور غبية ومال زين العابدين بك فحاة فأمسك بحجر والقاه على شجرة حافلة بالطير فانبعث الحمام واليمام صاعدا فى السماء وحوم مرة ثم اتبعها باخرى ثم عاد الى الشجرة واطمأن به المقام وزين العابدين يقول ما يزال .

ـ عمى عدا الطير عمى

حان موعد القطار ودرلت بهية هانم تتقدمها الحقائب واستقل الزوجان العربة الى المحطة ، واقبل القطار بعد قليل ، بطيئا فى قدومه وكأنه يتحسس طريقه يستوثق ان الاصلاح قد تم باتقان ، وحيى بارح القطار المحطة بطيئا ما يزال نظر زين العابدين الى السماء ، وارتاحت نفسه حين راى بسامة تسير بجانب القطار وكأنها تسابقه، ثم مالبث ان انشغل عن السماء بالارض ، وعاد ينظر الى الطريق الذى انقطع عن السير فيه اشهرا طوالا ، وشاركته بهية هانم الصمت والنظر الى الطريق حتى اذا وصلا الى القاهرة طلبت بهية فى تردد ان يذهبا الى الطبيب اولا ماداما قد وصلا فى موعد مناسب والتقى طلبها برغبة زين العابدين الذى اراد ان ينتهى من

هذه المهمة ليفرغ بعد ذلك الى القاهرة التي بلغ شوقه اليها اقصى مداه وتم لهما ما ارادا وعادا الطبيب وكتب الدواء للست واستقبلت التذكرة بامل عريض مشرق واستقبلها زين العابدين كما تعود ان يستقبل كل وصفة جديدة تأتي بها زوجته .

واشترى لها الدواء وذهب بها الى بيت اليها وقبل ان يدخل قال سائق العربة الاجرة :

ـ هل انتظر سعادتك ؟

وعدون وعى قال زين العابدين :

ـ نعم .

وصعد هادي زيارة عاجلة ثم استأذن وخرج .. الى القاهرة !

كان بار الانس هو البيت الحقيقي الذي يعطنه زين العابدين حين يأتي الى القاهرة ، وكانت صديقته فيه فاطمة العراقية .. فتاة اتعست ارصاء الرجال نصيبها من زوار البار هم الاغنياء الذين يحبون ان يبذلوا اموالهم في كرم وسماح وقد كانت في هذه الشهور التي غاب فيها زين العابدين قد وطدت صداقتها بوجيه آخر من وجهاء القاهرة الذين لم تمنعهم الثورة وتقطيع الخطوط الحديدية من زيارة البار ، وهكذا كان دخول زين العابدين عليها أمر لا تستطيعه بالحفاوة والترحاب في دخيلة نفسها وان كانت قد ابدت له كل ما تملكه طوال حياتها العريضة من حفاوة وترحاب . جلست اليه بضع دقائق ثم استأذنت وقامت الى زميلتها انيسة ولعبه .

ـ هذا السوار يعجبك من زمان ؟

ـ نعم .

ـ وهذا القرط .

ـ ما شبابك ؟

ـ الذي احضر السوار والقرط هذا الرجل الجالس هناك .

ـ نعم اعرفه زين العابدين .

ـ يدي مشغولة في هذه الايام بغيره .

ـ هل تتشاورين في عمه ؟

ـ بعينك .

ـ فماذا تريدين ؟

ـ كم تدفعين لأتركه لك ؟

ـ اعطيك أول هدية يحضرها .

ـ واذا كنت خائنة ولم تستطيعي ان تنالي منه هدية مناسبة ماذا اعمل انا ؟

ـ وماذا اعمل أنا ؟

ـ تدفعين فيه ما اطلبه الآن والله يهديك به بعد ذلك .

ـ قولي ماذا تريدين ؟

ـ هذا المصحف الذي يتدلى على صدرك .

ـ هذا .. لقد تمسته بعشرين جنيها

ـ انت تعرفين اني استطيع الاحتفاظ برجلين وبعشرة اذا احتاج الامر .

ـ النهاية .. امري الى الله .. خذي

وخلعت انيسة المصحف وتقدمت هي وفاطمة من مائدة زين العابدين وجلستا وقالت فاطمة في دلال :

ـ يا زين الصابدين بك .. انت فاجأتنا بزيارتك ، واما الليلة مشغولة في فرح وقد رجوت انيسة ان تصاحبك الليلة .

ـ يا ستي اهلا بانيسة .

وتم الاتفاق دون اي اعتراض من زين العابدين فما كان يمكن أن يعترض بمشهد من انيسة ، وهو بعد ليس حريصا كل الحرص على ان تطول صلته بفاطمة اكثر مما طالت وما كادت فاطمة تقوم عنهما حتى سارع هو يسألها .

ـ اين تتعشى الليلة ؟ .

وكانت لانيسة حيرة بما يرضى الرجال -- حيرة ايضا بالامكنة التي يمكن ان تقصد اليها اذا كان معها زبون على هذا النحو الذي يتمتع به زين العابدين ، وسرعان ما اكتشفت فيها زين العابدين هذه المواهب فهو يسألها بعد العشاء :

ـ واين الغداء ؟

ـ غداء !! اي غـــداء يارجل ونحن مازال في العشاء !

ـ اقصد باكر !! ماذا بك ، لماذا لاتفهمني ؟! .

ـ باكر ؟! اي باكر ياسعاده البك ، الكلام كان عن ليلة واحدة .

ـ وانا لا اعرف لليله واحده

ـ وانا لا اعرف على ضره

وانا لا أعرف على ضرة ؟

ـ فمادا انت فاعل بفاطمة ؟

ـ من ياعك بعه

ـ ياراعي .

ـ يا سيدي ، كم من افراح احبتهـــا ونحن اصدقاء ولم تعتذر .

ـ تعجبني

ـ عارف .

ـ تعدي باكر في روض الفرج

ـ يابنت !! في الهواء الطلق عـلى النيل

ـ فاهمني

ـ وباكر ساكون فهمتك اكثر واكثر

وفي الغد قصد هو وانيسة روض الفرج واختار مضـــدة على النيل وامر بالعشاء وطلب زين العابدين حســـامة مشوية وطلبت هي كبابا وفي انتظار الاكل ان يأتي نظر زين العـــابدين الى السماء وكأنما يريد ان يرى مقـــدار سطوع الشمس ، ولـــكن ادهشـــه ان وجد حذاء كثيرات تحوم حول المكان ، وقال لانيســة

ـ ماذا تفعل كل هذه الحذاء هنا ؟

ـ كل مخلوق يبحث عن رزقه

وسكتت ، وجاء الطعام واســتقر على المائدة وهذا زين العابدين ياكل فقطع لنفسه لقمة عيش عســـها في ســـفطه الطحينة حتى اذا ابتلعها مديده للحمامة المشوية وقد اخذ به الجوع مأخذه ، ولكن لم يكد يمد يده حتى انقضت على الحمامة حذاء بارعة فاذا الحمـــامة المشوية في مخالبها واذا هي في السماء مرة اخرى قبل ان يفيق زين العابدين من المفاجأة المذهلة .

***

خرج زين العـــابدين من اللوكاندة يريد ان يقصد حي الصاغة فقد كان لابد له ان يشتري هدية للصديقة الجديدة. ووقف يستطر عربة ان تمر به ولكن طال به الوقوف دون ان تمر به عربة وسئم زين العابدين الانتظار فراح يمشي آملا ان يلتقي بعربة ولم يمر بخاطره انه من العسير ان يجد هذه العربة فقـــد ترك القاهرة حين تركها قبل الثورة وقائدو العربات يلحون عـــلى المارة ان يركبوا وحين نزل في احسنه من القطار لم يجد صعوبة تذكر في الحصول على عربة وقد ظلت العربة معه حتى عاد الى اللوكاندة وسأله السائق ان كان يريده في اليوم التالي واندهش من السؤال ولكنه وافق وظن ان سائق العربة يريد ان يضمن رزق غده ولم يشأ ان يحطم آماله فوافق وظلت معه العربة طوال اليوم التالي حتى عاد الى اللوكاندة فهو اذن يجهل كل الجهل ما الم بالمواصلات حتى في القاهرة وقد اوقعه هذا الجهل في خطأ يدفع ثمنه الآن فهو لم يطلب الى السائق ان يعود اليه في يومه هذا فما كان يتصور انه لن يجد عربة في اية لحظة يشاء ، ومرت به

عربة كارو فوجدها مزدحمة ووجد بها فوقا لم يتعود ان يرى مثلهم على عربة كارو وبولته الدهشة ولكن لم تكد تمضي دقائق حتى ظهرت عربة اخرى كارو ايضا ولم تكن مزدحمة فاذا سائقها يقف بجانبه ويقول

- تفضل يا بك .

- ماذا ؟

واوشك ان يغضب ولكنه نظر فوجد الواكيين لايقلون عنه وجاهة وقال أحدهم وهو أفندي أنيق

- تفضل يابك يظهر انك قادم من الريف قريبا .

وقال زين العابدين وهو في دهشته لايزال

- نعم .

- هذه هي وسيلة المواصلات الرسمية الآن فسائقو الخطوط مضربون .

وقال السائق

- اتحب ان تجلس في الدرجة الاولى؟

- ماذا وهل عندك درجة اولى ؟

- نعم هنا في المقدمة . تجلس على وسادة وستجد الجلسة مريحة ونظيفة

- وكم الاجر ؟

- قرشان .. الى اين انت ذاهب .

- الى الصاغة

- تفضل

ودفع زين العابدين القرشين وركب واستأنف الحديث

- ولكني ركبت بالامس عربة حمطور

وقال السائق

- لابد انك ركبتها من المحطة .

- نعم

- والثمن ؟

- اضرب عماله أيضا .

وقال احد الراكبين من الوجهاء

- لقد وجدنا الكارو امتع .

- وقال السائق

- انها ركبه سلطاني .

وقال زين العابدين

- ولكن لماذا الاستمرار في الاضراب وقد سمح للوفد بالمفاوضة وقالت وزارة رشدي وأوشكت الامور ان تستقر

وقال الافندي الذي حادثه اولا

- لجنة الموظفين مانزال مضربة وقد وضعت شروطا للعودة للعمل وهكذا استمر الاضراب

وقال آخر

- الاضراب مستمر وان كانوا قد اخذوا يخضعون الاكتتاب للوفد .

- اعانهم الله .. لابد ان ينجح الوفد في مهمته

واستمر الحديث بين الراكبين حتى بلغ زين العابدين الى الصاغة فنزل واختار سوارا من الذهب الثقيل دفع فيه عشرين جنيها وعاد وقد عرف طريقه فوقف الى موقف العربات الكارو فركب الدرجة الاولى وصعد معه شاب يلبس الملابس البلدية والفندي لاتبدو عليه مظاهر الغنى كما ركب الى جواره في الدرجة الاولى وجيه يرتدي ملابس الفقهاء وان كان يبدو عليه انه تاجر وسارت العربة . وبدأ الافندي غير الانيق حديثه مع الذي يلبس الملابس البلدية .

- يا ليتني كنت املك اكثر من هذا كنت قدمت

- ومالك ؟ كل انسان يقدم مايستطيع .. انا لم احدثيتا ولا روحتي لطالما حرمنا طول العمر

ـ وماله يا أخي السلما روحين ؟ ..

ـ نعم ولسكنها عروس جديدة ولم احضر لها الا هذا العقد ..

ـ والله انها عاقلة ..

ـ رأت مقدار ضيقي فعالت لي بعه وحين يأتي المال استرى لي غيره ..

ـ وهل بعته ؟

ـ لا .. سأقدمه هو الى لجنة الاكتتاب فاني اخشى ان بعته ان يبخسوا ثمنه .. انا اشتريته بعشرة جنيهات وعلى عقد شرائه .. سأقدمه هو والعقد الى اللجنة واللجنة ستقيمه بثمنه ..

وسمع زين العابدين الحديث فعجب له ، وراح يفكر في هذه الفاضلة التي اتضحت هذه الاتضاضة فلم يعد يسمع شيئا انما هو طيف من الدماء الفوارة في عروقه .. انه البعث ، ووقعت العربة فما درى اين وقعت ونزل الافندي والشاب فوجد زين العابدين نفسه يتزل معهما وسارا فسار خلفهما وتحلا بيتا وقدم كل منهما اكتتابه واخذ كل منهما ايصالا وانصرفا وتقدم هو بعقد السوار الذي اشتراه ومعه العقد الذي يثبت ثمنه وسأله الذي يتولى جمع الاكتتاب ..

ـ اسم حضرتك ؟

ودون وعى قال

ـ انيسة ولعة ..

وقال الرجل داهشا

ـ ماذا ؟

واعاد زين العابدين ليقول

ـ اكتب الايصال باسم انيسة ولعة ..

وحين لبثها قدم لها الايصال فنظرت اليه نظرة عميقة واحتضنته وهي تقول

ـ هذه اعظم هدية نلتها بل اظنها اعظم هدية سألتها في حياتي .. لقد حملت على السامة لها وطي وعليها واحب بحوه اطال الله عمرك ..

ـ ٥ ـ

كانت الخاجة نعمة جالسة في بهو بيتها تنتظر الحاج وان يعود ، فهي تريده في امر قد يدهش له ولكنها تراه عدلا ، ولا بد ان تقوم به .. وكان يجلس الى جانبها طفل في الخامسة من عمره دقيق القسمات ، دقيق الجسم اسمر البشرة رغم المجهود الكبير الذي بذلته يد رحيمة لتزيل عنها قدر ايام ان لم تكن شهورا طويلة وكان يرتدي جلبابا من القماش الرخيص وان كان يبدو هو الآخر انه انتقلت من النظافة منذ لحظات .. وكان الطفل جالسا داخل النظرات في عينيه اليسرى دمعة مسكينة لا يدري لانسيابها سببا وانما هي تلازم عينه كلما أرادها عادت تتمسك في الحاح واصرار .. ولكن عينه ترعى مع الدمعة اشعاعا من الذكاء لا يخفى وقد حاول الطفل في عزم الا يبدو منه الا الهدوء والطاعة .. فقد كان حديثا على هذا المنزل ، حديثا على هذه النظافة التي

نوائب عليه فجاء فكان محاميها حسنه وعليه في آن معا ، فهو واجف صامت في نظرته انتظار المجهول ودهشته بادية على محياه جميعا . وقد حاولت الحاجه بسمه ان تطمئن وحشته وتؤنس غربته فيلجأ الطفل منها الى هذه الطيبه الحنون اللاهف الغريب يستشف الحنان ويتلمس اليد الرحيمه أو الكلمة العطوف لايبحث عن مصادرها ولا يهتم بدواعيها ويشغل الطفل حينما مر الرمل بناموسة بلح على يده فيبطر اليها طويلا وهي مستقره لا تبارح مكانهـا ويحرس الطفل الا يحرك يده وكأنما يحاذر ان يفصل من الناموسة أحشاءها ، ولكن الناموسة لاتقابل عطفه بغير عضة في يده فتختلج يده خلجه مذعورة داهشة تطيح بالحشره بعيدا ولكنها ما تلبث ان تعود الى يده الاخرى فيتكرر ما حدث من الطفل والناموسة ، وتخلو الناموسة عنه فيبحث عن شيء آخر يشغله فلا يجد الا نور المصباح المتراقص لايقر له قرار وما تلبث صالحة ان تدخل الى البهو قادمة من حجرتها يتقدمها حنينها ولسانها وهو لايكف عن الدعاء للحاجة بطول العمر والهناء والسعادة والحاجة تتقبل هذا الدعاء في تواضع وتهزين من شأن المعروف الذي تلوح بذكره صالحة .

وتحاول صالحة في اخلاص ان تتلمس اوامر الحاجة فهي تسألها ان كانت تريد شيئا اى شيء وتجيب الحاجة انهـا تريدها ان تستريح وتريح هذا الجسم الذي ترهقه معهـا في الذهاب والمجيء دارعة له عرفات البيت لانهدأ ولا تجعله يهدأ والطفل يسمع مايبنهما من نقاش لايدري من اسبابه شيئا ويهم ان يسأل علام الشكر ؟ ثم تمسك بلسانه وحشة الغرب فيبتلع استفساره مع احاديث كثيره ستراود على ذهنه ما ان يبدو على صفحة عقله حتى يقمعها فتعود مختفيه متراجعة الى واد من النسيان حيث لايعلم الطفل ولا يعلم احد اين تذهب .

ويأتي الحاج من الخارج ويرى الطفل فيدهش خطة ثم يقول في ترحيب طيب

ـ اهلا حسين .. مساء الخير ياحاجة كيف حالك ياصالحة ؟

وتجيب الزوجتان التحيه ويتقدم حسين الى الحاج والى فيقبل يده ويقعد الحاج على الاريكة بجانبه منه وتقوم صالحة وهي تقول

ـ تعال يا حسين

ويتبع حسين امه الى حجرتها وتقول الحاجة

ـ لى طلب عندك .

ـ طلبك امر ياحاجة .

ـ اريد حسين ان يقيم معنا .

ـ ماذا .. وانت التي تطلبين ؟

ـ ومن يطلب هذا اذ لم أطلب اذ .

ان زوجتك صالحة على وشك الوضع ولا شك انك ستتربي انك احسن تربية وحسين اخوه على كل حال وانا لا احب ان يكون احد الاخوين متعلما والآخر جاهلا .

ـ ربنا يعطيك بقدر طيبتك ياحاجة

ـ لو اقام حسين عندنا لما استطاع ان يعلمه وليس يكثر عليك ان تربي ابن زوجتك كأنه ابنك فهو يتيم ويستحق العطف .

ـ ياحاجة انت طيبة وصالحه .

ـ ماذا قلت ؟

ـ البيت ياحاجة بيتك لك ان تفعلي فيه من تشائين وتخرجي منه من تشائين .. وقد كان الاجدر بي ان اطلب اليك هذا الطلب اكراما لصالحة .. انـا انت دائما تسبقين الى الخير .

كانت الريح عاصفة يشتد عصفها كل حين ، بدأت اول ما بدأت بدورات الرماد تحملها ثم قويت فاصبحت تحمل الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ثم راحت تخلع عن اشجار الكافور اوراقها ثم اشتد ساعدها فاذا هي تحطم اغراف الشجر لاتفرق بين الكافور أو غيره من الاشجار وراحت تحمل الاغراف في سرعة مجنونة تندفع الى حيث لاتدري مقصدا ، رياح عمياء مجنونة معربدة ليس فيها من التبصر الا انها تندفع الى هدف واحد وان كانت لاتدريه ولا تدري لماذا اختارت هدفها هذا ، وهي مع ذلك تتردد احيانا في الاندفاع الى متجهها فهي تدور حول نفسها بما تحمله في دوامة عنيفة من الهواء والرماد واغراف الشجر ولكن قليلا ما يدوم ترددها ثم هي تمضي سبيلها لا تلوي على شيء ، ريح قل ان تعرفها مصر ، وسارع المطر يهمر فهو السيل الجارف ينسكب انهارا من السماء فهو انهار في الارض فياضة تختفر المجرى في اصرار والحاح ، وكأنما ارادت السماء ان تمهد الطريق للانهار الباشئة الصغيرة فالبرق يخطف الابصار ان وجدت ثمة في العراء ابصار ، فالناس في بيوتهم يعتصمون من اليوم الراعد والسيول والاعاصير بالجدران الصماء والسقف المغلقة من النوافذ ويستعينون بالمواقد والاغران على البرد الزمهرير القارس .

اما الحاج والي واهل بيته فهم في شأن غير شأن الناس ، فقد كانت صالحة تعاني آلام الوضع تقف الى جانبها قابلة القرية الحاجة زينب أم عوضين ، والحاجة نعيمة تعين بكل خبراتها التي تلقتها من المواقف المماثلة مع الصديقات او قريباتها بينما انتبه حسين مكانا قصيا يحاذر ان يعرقل الارجل المتسارعة رواحا وغدوا في حسبات البيت تمسك من عينيه تلك الدمعة التي لا تفارقها والتي تعود الى الامساك كلما ازالها حسين بيده اما الحاج والي فقد جلس الى الاريكة ممسكا بسبحته يسبح عليها يذكر الله محاولا ما وسعه الجهد ان يبدو في هدوء الرجل وان كانت طبيعة الانسان تابى عليه الهدوء أو القرار .

وخرجت القابلة فطلبت شيئا ، ودخل الحاج والي ولكنه لم يسأل عما يدعوها الى طلب التين وانما قام وصحب حسين الى المتين فملأ قفة وعاد هو وحسين يحملان ويحملانها على ملابسهما كميات كبيرة من ماء المطر وفي اقدامهما الواحا كاملة من الطين ، فقد كان لابد لهما أن يخرجا الى العراء ليملأ الى المتين .

وعاد الحاج والي الى اريكته وحسين الى مكانه القصي ، وعادت المسبحة الى اصابع الحاج والدمعة الى عين حسين .

ولكن الام صالحة لاتنقطع تنفسها في آهات يشق سماعها كيانها كله، والغرفة ذات الباب المقفل صماء لا تفلت احدا من من داخلها ليخبر الحاج والي ماذا يحدث في الداخل ، واخيرا انشق السكون عن القابلة وهي تقول

ـ لابد من طبيب ياحاج ـ انا لا استطيع ان اقوم بولادتها وحدي وقال الحاج والي

ـ طبيب ـ تقولين طبيب .

وخرجت الحاجة نعمة وهي تصيح

ـ نعم ياحاج طيب ام نترك السيارة هنا ؟

ـ ومن اين آتي بالطبيب الآن كيف لي به ؟

ـ اطلبه من طبيبون الصيدلية ـ اطلبه بحضر باية وسيلة وقام الحاج والى يريد ان يخرج وحينئذ تقدم حسين وهو يقول في صوت واهن حازم :

ـ انا قادم معك يا ابا الحاج ـ ويقول الحاج في صوت طيب ولكنه حازم ايضا :

ـ لا ـ ابق انت هنا يا حسين .

ويخرج الحاج الى الطريق يتبعه سهيله في الرياح العاصفة يكاد لايبصر ما امامه من شدة الرياح وانسياب الماء حتى يصل آخر الامر بيت وبين العابدين ولا يعرج الى البيت وانما يقصد الى دار سائق العربة محمود ابو عبد الهادي ليطلب اليه ان يجهز العربة ليذهب الى المركز ويوشك محمود ان يقول ان الخيل لاتستطيع المشي في هذه الانواء العاصفة ولكنه يرى لهفة الرجل ويقدر ايضا ماسياله من عطاء سخي فيطيع ، ويركب الحاج العربة وتأخذ سبيلها الى المركز ولكنها على رغم قوة الخيل تمشي بطيئة متمايلة تعرس بحلاتها في الطين كلما سارت . وحين عادت العربة بالطبيب كان الفجر قد اوشك ان يرسل نوره وكانت السماء قد اقلعت عن المطر ، وكانت الريح تهدو وكانما مسها الكبر ولكنها مع ذلك تأبى ان تعترف بالوهن فهي تحر الاشياء التي كانت تحملها في صدر النهار بحدة واستهتار ولكن البرد كان مايزال شديدا قارسا .

ودخل الحاج والى والطبيب الى البيت ونادى الحاج والى

ـ ياحاجة نعمه !

وخرجت اليهما الحاجة ، وما لبثت ان قالت

ـ الحقا يا دكتور .. تعصل !

ودخل الطبيب ودخل معه الحاج والى وكانت صالحة بلقف انفاسها في ضعف واصرار وكانما هي تنتزع الهواء من الحياة انتزاعا ، ومرت بذهن الحاجة نعمه خاطرة عجبت لها في هذا الموقف العصيب، لقد رفضت ان يراها طبيب رجل وخطبت لزوجها هذه الفتاة لتلد له ، ولكن الله اراد لحكمة لا يعلمها الا هو الا ياتي الولد ـ ان هو جاء ـ الا على يد طبيب رجل وصحت الحاجة من خاطرتها على صوت الطبيب

ـ اتركونا اركضوكم .. لا اريد الا القابلة .. اتصبح ياحاجة ويب ان تستعملي التين كم مرة انهاك عن هذه القذارة .. اراءت سيحة عملك .. اتركونا اركضوكم !

وخرج الحاج والى وخرجت من وراءه الحاجة واتصدا الاريكة ولم يخرج الحاج مسبحته وانما راح يسأل الحاجة نعمه في اشفاق :

ـ هل احاله خطيره ياحاجة ؟

ـ ربنا يسلم ياحاج .. انا لم ار في حياتي ولادة كهذه .

واراد ان يعيد السؤال فوجد انه سيصيح صيحة كما وجد انه لن يسمع الجواب الذي يتلمسه فلم يجد مناصا من ان يعود الى مسبحته فهو يخرجها ويأخذ في استغاثة حباتها الواحدة بعد الاخرى في محاولة فاشلة للهدوء او الاطمئنان وحسين ينظر الى الحاج والحاجة والدمعة في عينه وتتمور بالخطر يملأ حواشيه وان كان لايدري ما وجه الخطر او اسبابه .

وطال غياب الطبيب وطال ، وباب

الحجرة مقفل لايبدو عنه انسان يعرف منه الحاج ما يجرى داخل الغرفة .

واطل الصباح في تباشيره الاولى وتهيأ الحاج للصلاة ولكن الصوت الخالد الذي يستقبل به الاطفال الحياة قد عن الغرفة المقفلة بكاء . وتوقف الحاج باهتا وراح ينظر الى الغرفة ولكن بابها ظل صامتا الا عن البكاء . ولم يطق الحاج صبرا فاندفع الى الباب وفتحه وقبل ان يقتحم الحجرة واجهه الطبيب مرتبكا لايدرى ما يقول وعاجله الحاج وال .

ـ خير ياكتور ؟

وصمت الطبيب وقالت القابلة

ـ اصبح لك ولد ياحاج

وقال الحاج .

ـ وهى .. صالحة .. كيف هى ؟

واستحثت القابلة حسيرة والعت بنظرها الى الارض وقال الطبيب

ـ تعيش انت ياحاج .

ودخل الحاج واقدم الى سرير زوجته ثم احجم وترك الغرفة تائر النفس ممزق المشاعر بين امل تحقق وروح ازهقت في سبيل تحقيقه لايدرى ماذا يفعل الا انه دون وعي استقبل الصلاة وكبر وانتوى الصلاه ودمعات تدوح في نبيه وقرا الفاتحة ثم وجد نفسه يتلو الآية الكريمة « بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب » صدق الله العظيم

- ٧ -

كان لابد لزين العابدين ان يعود الى القرية بعد ان اقام اكثر من شهرين في القاهرة فصحب زوجته وعادا . وهناك علم بما الم بالشيخ والى من فقد زوجته وابنائه فما استراح من السفر وانما ذهب اليه واستقبله الشيخ في وجه جامد فيه من الحزن اكثر مما فيه من الراحة ، ولم يكن زين العابدين يدرى ان كان الاجدر به ان يهنىء الشيخ والى على مولوده الجديد ام يعزيه على فقد زوجته ولم تطل به الحيرة فقد اختار آخر الامر ان يجرى الحديث في مجال آخر بعيد كل البعد عن التهنئة او التعزية وان كان هذا المجال يملأ رأسه ويختلطان في وقت معا بأفكاره فهو عاجب كيف يختلط امران متناقران كل التناقر في وقت واحد بتفكيره، كيف يأتي عليه حين من الزمن لايدرى ايهما الاجدر به تهنئته ام تعزيته، كيف تداعب حياة الناس الى هذا الحد فتجعلها خليطا من الفرح والحزن ومزاجا من الهناءة والاسى . ولم تشغله حيرته هذه عن ان يروى على الحاج والى ما شهده في القاهرة من انار الثورة والحاج والى يشارك في الحديث مشجعا قد احدث الانباء عما يعانيه من مشاعر مختلطة ، ولكنه في اعماقه ما يزال يعاني آلاما حادة مما لقيه في سبيل تحقيق آماله حتى كاد يستقر

في نفسه في يوم ما انه هو المسئول عما عانته زوجته من آلام وليلا الحاجة نعمه وما احدثت تروصه به من حديث لاصابه التلف وعجز عن مواجهة الحياة ليس يدري كيف احتضنت الوليد وراحت ترعاه رعاية ام ، بل ليس يدري كيف ابت ان تترك حد حسين وحده ياحدانه وكيف بعثت الى نفسه الرضى والطمأنينة انه حين يقوم بشأن حسين سيرعى روح هذه التي ضحت بحياتها وهي تهب له اغر امنية تساعا في حياته وليس يدري كيف راحت تقول لسيدة ام عسل وزوجها محمدين ان حسينا سيكون لها بمنزلة الابن وهو الذي لاولد لها ، ليس يدري الحاج والى شيئا من هذا وكيف له ان يدري ؟ انه يهذه اليد الكريمة التي تولته بها الحاجة نعمه استطاع ان يعود الى الحياة ، واستطاع ان ينظر الى طفله الوليد وقد كان يرى فيه جريمة ارتكبها ليس لها من غفران وكان يتصور نفسه ازهق روحا بشرية ليجعل اهله هذا ، استطاع وبد الحاجة نعمه تسبح نفسه الهائمة ان ينظر الى ابنه محمد وان يحمله ويهدهده بل واستطاع ان يفرح به واستطاع ان يعود الى الناس وان يجلس هذه الجلسة التي يجلسها الى زين العابدين فيسمع منه ويجيب فلا يرهق عن حديث يلقى اليه الا لحظات قلائل ثم تعود الى ماكان فيه من حديث .

والقى زين العابدين حمله فافرغ كل ماكان في جعبته من حديث وكان لابد للحديث ان ينتهي ، وانتهى وسكت زين العابدين وظل رانيا الى الحاج والى تواجهه فيه حيرته مرة اخرى ايعريه ام يهبته . ولم يكن زين العابدين مداورا فالقى بحيرته في خط مستقيم .

ـ حاج والى انا حائر فيما أقوله لك؟

ـ وانا والله بابك حائر فيما وقع لى

ـ أأعريك ام اهبتك ؟ .

ـ انا ايضا لا ادرى يازين العابدين بك .

ـ انت تعرف اني حزنت لك وفرحت لك ايضا .

ـ اعرف .

ـ ثم سعدت بما سمعته عن بعـــاء حسين عندك .

ـ اتتصور ان الحاجة التي الحت في إتقانه .

ـ الست التي تخطب لزوجهـــا لا يستغرب عليها شيء .

ـ انها ست صالحة يازين العـابدين بك .

ـ انها من اعظم نعم ربنا عليك ياحاج

ـ وماذا فعلت مـــع الدكتور نجيب محفوظ ؟

ـ كل خير .

ـ ماذا ؟ اصحيح ما تقول

ـ والله الى الآن لسنا متأكدين ولكن الغالب ان يكون الله قد خير خاطرنا .

ـ ان شاء الله ياسعادة البك .. ان شاء الله .

ارايت .. الم اقل لك قبل سفرك ان احدا لايعلم الغيب الا الله . ارايت .. الم اكن محقا .. والآن الا ترى معي ان تضم يدك بعض الشيء . لقد اصبحت مسئولا الآن .

ـ اجعلتني مسئولا من الان ياحاج والى ، ونحن لم نتاكد بعد ان كان هناك حمل ام لا ؟

ـ ياربى العابدين بك انت اكثرت من البيع ـ كم غدانا بقيت لك ؟

ـ سبعون .

ـ لا اظنها تكفى مصاريفك ـ ارجوك كف عن البيع .

ـ والله ياحاج والى ان كانت روحى حاملا حقا فانى اعاهدك انى لن ابيع بعد ذلك ابدا الا .

ـ الا ماذا ياسعادة البك .

ـ الا لأسدد الدين .

ـ ثمن خمسة افدنة او ستة .

ـ انا اسدد الدين واشترى الارض ولا سمح بعد ذلك .

ـ هو ما تقول ـ ان حقق الله الآمال فمن يكون الا هذا .

ـ على بركة الله .

ـ على بركة الله .. وحسين هل يذهب الى الكتاب ؟

ـ والله ياسعادة البك انى اخاف ان احسد هذا الولد ، ذكى جدا ويحفظ بسرعة وسيدنا يمدحه دائما .

ـ انت رجل طيب ياحاج

ـ قالت الحاجة انك ستعلم ابنك ولا يصح ان يكون اخوه غير متعلم وان حنت للحق ياربى العابدين بك انا سيدة حادثة الانجليز معى وانا انسى ان اعلم ابناء مصر جميعا وقد ارضانى الله فجعل لى بدل الولد ولدين .

ـ قواك الله .

ـ الا ان حسين لايجعلنى اهتم بشىء له ابدا ، انه حريص على الا يشغلنى بنفسه ابدا .

ـ طبعا شعوره بانك تتفضل عليه

ـ انه يقضى بدحائله للحاجة ، وهى تعامله وكانها ولدته .

وقبل ان يكمل جملته مر حسين بباب الغرفة فاستدعاه الحاج والى

ـ يا حسين .. تعال .

ودخل الطفل الى الحجرة فى ادب هادىء وديع والدمعة مايزال مبللا من عينيه وامره الحاج والى ان يسلم على ربى العابدين فسلم ثم مسح دمعته بيده وانتظر لحظة فسأله ربى العابدين

ـ الى اين بلغت من القرآن ؟

ـ الى اول جزء عم .

ـ اجلس واتل علينا شيئا مما تحفظ

ولم يتوان حسين فاتخذ مجلسه على الاريكة وخلع نعليه وفى صوت طيب راح يقرأ فى خشوع .

البقية فى العدد القادم